سفر اليوبيلات

القس عيسى دياب
دكتوراه في اللاهوت
دكتوراه في تاريخ حضارات الشرق الأدنى ودياناته

تعريف بعنوان الكتاب

سفر اليوبيلات كتاب من الكتب المنحولة في العهد القديم وهو مدراش تفسير تقليدي لمضمون سفري التكوين و الخروج ١-١٢ القانونيين في التوراة. تشير التسمية، «اليوبيلات»، إلى مضمون الكتاب، و هو أنه يقسم الفترة الممتدة من بدء الخليقة حتى إعطاء الشريعة على جبل سيناء إلى فترات يوبيلية متساوية يبلغ كل منها ٤٩ سنة بحسب ما جاء في سفر اللاويين الفصل ٢٥. و بحسب الكاتب، يكون الاسرائيليون قد دخلوا بلاد الكنعانيين مع نهاية اليوبيل الخمسين، أي سنة ٢٤٥٠ من بدء الخليقة (٥٠x٤٩).

عنوان الكتاب: «اليوبيلات»، كما استخدمه إبيفانوس، و هو ليس سوى موجز فعال ومعبر للعنوان الأصلي. وضعه في العربية موسى ديب الخوري تحت اسم «الخمسينيات»، في ترجمة[1] صدرت حديثا لكتاب: LA BIBLE, les écrits intertestamentaires[2]

بينما أبقى له الخوري بولس الفغالي إسمه الأصلي، «اليوبيلات»، في ترجمة للكتاب[3] صدرت له حديثا. ونحن نفضل التسمية الثانية على الأولى كونها أقرب إلى الأصل وكون كلمة «يوبيل» مستعملة في اللغة العربية. نجد أقدم ذكر وإسناد لكتاب اليوبيلات في كتاب دمشق، ١٦، ٣-٤، حيث يرد تحت عنوان «كتاب تقسيمات الأزمنة بحسب يوبيلاتها وأسابيعها من السنين». أما العنوان في النسخة الأثيوبية فأتى على شكل مقدمة إخبارية: «هوذا سرد التوزيع الشرعي والمؤكد للأزمنة والأحداث والسنوات في أسابيعها وفي يوبيلاتها على مدى سنوات العالم». دعي الكتاب، في بعض النسخ التي وجدت، «التكوين الصغير»، و هكذا سماه أيضا إبيفانوس و George le Syncelle كونه يغطي، في القسم الأكبر منه، الأحداث الواردة في سفر التكوين القانوني. ودعي أيضا «رؤيا موسى» و «عهد موسى» وأعطي أسماء أخرى.

الكاتب وتاريخ الكتابة

كأكثر الكتابات المنحولة وبعض الكتب من القانونية الثانية، كاتب سفر اليوبيلات غير معروف. واضح أن الكتاب من نتاج مؤلف واحد، وقد ارتكز على كتابات أقدم بكثير، وهو يفسر التاريخ القديم على ضوء معارف زمنه؛ يظهر هذا في تشديده على الناموسية الطقسية كما تبلورت وأخذت شكلها الخاص بعد دراسات واجتهادات دامت حتى القرن الأول قبل الميلاد. إذا قارنا بين مضمون سفر اليوبيلات والمواضيع نفسها كما وردت في سفرَي التكوين و الخروج ١-١٢، فتكون نسبة الكتاب لهذه الأخيرة كنسبة سفرَي أخبار الأيام إلى سفري صموئيل وسفرَي الملوك معا (أربعة أسفار الملوك بحسب الترجمة اليسوعية). فكاتب «الأخبار» أعاد كتابة أحداث التاريخ القديم منذ الألف الأول ق.م. (طبعا يبدأ كتاب الأخبار

١- أندريه ديبون- سومر ومارك فيلوننكو (محققان مشرفان). التوراة، كتابات ما بين العهدين. ترجمة موسى ديب الخوري. دمشق: دار الطليعة الجديدة، ١٩٩٨.

٢- DUPONT-SOMMER, André et PHILONENKO, Marc. *LA BIBLE, les écrits intertestamentaires*, 3 volumes. Paris, Guallimard.

٣- بولس الفغالي، سفر اليوبيلات. بيروت: الرابطة الكتابية - توزيع المكتبة البولسية وجمعية الكتاب المقدس، ٢٠٠٠.

بالبدايات)، حتى السبي البابلي بروح عصره، (القرن الرابع ق.م.)، وفسرها بعد حدوثها بوقت طويل. حاول الكاتب أن يعالج قصص الآباء وموسى بالطريقة نفسها التي عالج بها كاتب الأخبار تاريخ صموئيل وملوك المملكة الموحدة، ثم ملوك إسرائيل وملوك يهوذا. أبرز الكاتب آباء إسرائيل كحافظين مدققين في الناموس والشرائع الطقسية، كما فهمت في تاريخ حياة الكاتب. أما الأسلوب الأدبي فقريب جدا من أسفار أخنوخ وعهد الآباء الاثني عشر والكتابات الأسينية التي اكتشفت في قمران. «توجد في الكتاب مدلولات قوية تدعم الرأي القائل بانتماء الكاتب لهذه الجماعة. ومن المحتمل أن يكون كاهنا، إذ أنه وضع لاوي في مرتبة أسمى من يهوذا (قارن فصل ٣٠ مع تكوين ٤٩: ٥-١٢)»[٤]. يشدد الخوري الفغالي في كتابه على كهنوت الكاتب ويقدم أدلة قوية لدعم رأيه[٥]. يظهر أن الكاتب كان من مناصري حبر جماعة المكابيين، إذ أنه أسند إلى خلفاء اللاويين لقب «كهنة الله العلي»، وهو اللقب الذي أطلق أولا على «امراء المكابيين» (الكهنة؛ أنظر ٣٢: ١). إن هذه المدلولات وغيرها تشير إلى أن الكتاب كتب حوالى سنة ١٠٠ ق.م. في فلسطين، «وكل الآراء التي قدمها بعض الاختصاصيين لدعم تاريخ أقدم للكتابة هي غير مقنعة وغير مقبولة إجمالا»[٦]. يوافق الخوري بولس الفغالي على هذا التاريخ في مقدمة كتابه[٧]، بينما يفضل تاريخا يقع بين سنة ١٧٠ وسنة ١٤٠ ق.م. في الدراسة عن السفر التي ذيل كتابه بها[٨].

اللغة والمخطوطات

لا نملك من الكتاب بلغته الأصلية (العبرية) إلا مخطوطات، هي عبارة عن أجزاء من عدة نسخ من الكتاب، اكتشفت قبل وقت قصير في قمران. أظهرت الأجزاء المكتشفة من الكتاب أن لغته الأصلية هي العبرية، لكن ترجمة أثيوبية تعود إلى القرن السادس للميلاد وجدت ونشرت في منتصف القرن التاسع عشر. ونملك ايضا بعض الأجزاء عن ترجمة لاتينية تعود ربما إلى القرن الخامس للميلاد اكتشفت سنة ١٨٦١، وتشكل هذه الأجزاء مجموعة ما يقارب ربع الكتاب. والترجمتان الاثيوبية واللاتينية منقولتان عن ترجمة يونانية للأصل العبري الذي وجدت أجزاء منه في قمران، وهذه الأجزاء باللغة العبرية متطابقة تماما مع المخطوطتين الأثيوبية واللاتينية اللّتين كانتا قد اكتشفتا سابقا. وفي هذا دلالة على أن مضمون الكتاب الأصلي ما زال محفوظا وسليما حتى ايامنا.

مضمون الكتاب

يدعي الكاتب أن ملاكا كلم موسى بأمر من الله وأملاه تاريخ الخليقة بكامله من تاريخ البشرية الباكر حتى أيام موسى، وطلب منه أن يكتب كل ما يسمع. أما الملاك، فمن المفروض أن يكون قد استعمل «الألواح التاريخية» الموجودة في السماء والمقسمة إلى يوبيلات: «وأخذ أحد ملائكة الوجه،... ألواح التقسيم الشرعي والمؤكد منذ الخلق للسنوات إلى اسابيع وخمسينيات [يوبيلات] ، سنة بسنة مع كافة أرقام الخمسينيات سنة بسنة، <منذ الخلق وحتى> يوم الخلق الجديد...» (١: ٢٩). ثم يبدأ الكاتب بتفنيد الأحداث كما جاءت تماما في سفر التكوين وسفر الخروج ١-١٢ لكن مع التواريخ الدقيقة لها، لجهة رقم اليوبيل والشهر واليوم، مع كثير من الحواشي والاستطرادات لشرح قوانين السبت والشرائع الطقوسية وشرائع التطهير وأيام المواسم والأعياد وتقويم الفصول. في كثير من الأحيان يأتي الكلام على هذه الشرائع قبل موعدها بكثير وفي غير مكانها الطبيعي، وهذا واضح لكل دارس ومتتبع لتطور الشرائع والطقوس اليهودية عبر التاريخ. إذا، الكتاب ما هو إلا سرد مواز للتوراة (الأسفار الخمسة) ومخصص لطرح بعض الإضافات التي تعبر عن أفكار الكاتب ومعايير زمنه. يقسم الكاتب الزمن إلى متتالية من اليوبيلات. والزمن كله مقسم، بحسب هذه المتتالية، إلى مائة يوبيل، ومجموعها أربعة آلاف وتسعماية سنة (١٠٠x٤٩=٤٩٠٠). ويكون منتصف التاريخ هو الدخول إلى

٤- STROTHOTTE, Guenter, In *The Zondervan Pictorial Encyclopedia of the Bible,* Volume 3. (Grand Rapids: The Zondervan Corp., 1975, 1976) 717.
٥- بولس الفغالي، ص ٢٤٢.
٦- STROTHOTTE, *Id.*
٧- بولس الفغالي، ص ٥.
٨- المرجع نفسه، ص ٢٤٠.

أرض الموعد، أي سنة ٢٤٥٠ من بدء الخليقة (٥٠ x ٤٩=٢٤٥٠). يضع المؤلف أحداث سفرَي التكوين والخروج ١-١٢ في النصف الأول من هذه المتتالية اليوبيلية. يقسم كل يوبيل إلى سبعة أسابيع من سبع سنوات حيث السنة ٣٦٤ يوما، كما في «البحث الفلكي» من كتاب أخنوخ الأول. «واقتراح مثل هذا التقويم، المتوافق تماما مع التقويم الوارد في كتاب أخنوخ، بل ومع التقسيمات الأسينية عموما للأعياد والأوقات المقدسة، وهو تقويم مشتق من التقويم الذي كان معمولا به في فلسطين عموما ولدى الشعوب الفينيقية بخاصة، يشير إلى السمة الهالاقية halakique (أي المعيارية والقضائية التشريعية) للعمل والتنظيم الحياتي، ويثبت مما لا شك في الأصل الأسيني للخمسينيات»[٩].

لنا في المضمون بعض الملاحظات:

١. أدخل الكاتب كثيرا من الشرائع والطقوس الواردة في الخروج واللاويين والعدد والتثنية، والتي تعود إلى عصور متأخرة، أدخلها ضمن أحداث سفر التكوين كتفسيرات للأحداث في كثير من الأحيان.

٢. توجد بعض التناقضات بين الاحداث المكتوبة في التكوين ونفس الأحداث كما وردت في سفر اليوبيلات، مثلا، قتل يعقوب لعيسو (٣٧: ١-٤).

٣. يدعو الكاتب عدو الشعب اليهودي «مستيما»، وهو مواز للشيطان أو «ملك فارس»، كما في سفر دانيال. ويضع الكاتب «مستيما» وراء كل القوى والشخصيات المعادية للشعب الاسرائيلي والشرور والاضطهادات التي أصابتهم، ولا نعرف من أين أتى الكاتب بهذا الاسم.

٤. يظهر لنا المؤلف الكثير من المعلومات الجديدة وبعضها لا يرد في أي كتاب آخر، مثلا: إسم ابنة آدم، أسماء نساء الشيوخ الأوائل، تفصيل تقسيم نوح للأرض بين أبنائه وأحفاده وغيرها.

التوجه اللاهوتي للكتاب

إن روزنامة الأعياد المتبعة في السفر تختلف عن الروزنامة البيبلية والتلمودية، وهي روزنامة تختلف أيضا عن تلك التي اتبعها الفريسيون أوالصديقيون، وهذا ما جعل من الموضوع إشكالية شغلت الأخصّائيّين. «يظهر أن جماعة قمران طبّقت هذه الرزنامة، ووصفت في السفر على أنها شريعة الله ... وهذه الميزة بالذات هي التي أشارت إلى أن الكاتب ليس فريسيا بل من أتباع جماعة قمران»[١٠].

لا شك في أن وضع روزنامة يوبيلية للزمن والتاريخ كان يهدف ليس فقط إلى تحديد الأعياد الدينية بل أيضا إلى إحياء الصورة القومية لليهود التي يظنونها متميزة عن القوميات والشعوب الأخرى، كونهم شعبا مختارا لـ «البيريث» (الميثاق أوالعهد)، بمعنى أن الزمن كله وتاريخ الشعوب قاطبة مقسم بطريقة تبرز التاريخ اليهودي حصرا. وفق الروزنامة الطقسية تصادف الأعياد والمواسم الدينية في اليوم نفسه من كل سنة، «وهي محاولة واضحة لإعطاء هذه الأعياد صفة قدسية. لكننا نعلم بالمقابل أنه كان من الصعوبة الحفاظ على هذه الدقة مع الاختلافات المتكررة من سنة إلى سنة، وهي إحدى المشاكل التي لم يكن الأسينيون فقط من يعاني منها»[١١].

يعلم سفر اليوبيلات أن لا رجاء لـ «غوييم» (الأمم) بالخلاص، لذلك فمن المستحسن الانفراز عنهم. وهذه هي الميزة التي طبعت الفريسيين قلبا وقالبا إذ أن اسمهم مشتق من الجذر الثلاثي «(ب)ف ر ز»، وهم حقيقة فرزوا أنفسهم عن كل الشعوب غير اليهودية (الغوييم = الأمم) كممارسة تطهرية إذ أن هؤلاء «نجسون» ولا أمل في طهارتهم. والانفراز الكلي عن «الغوييم» كان مبالغاً فيه في ممارسات جماعة قمران.

إن المعارف اللاهوتية للكتاب هي من اليهودية التي نشأت في الفترتين البابلية والفارسية إبان السبي، ثم ترعرعت في محيط الحضارة الهيلينية (من القرن الرابع حتى القرن الأول ق.م.). وفي هذا الإطار يخبرنا الكاتب أن الملائكة ولدوا في اليوم الأول من الخلق وكانوا مختونين . كما ويعرف وظيفة ملائكة الوجه وملائكة التقديس ورئيس الشياطين المدعو غالبا «مستيما». يشدد الكاتب أيضا على منع الزيجات المختلطة وأهمية الختان ومنع أكل الدم، إلى أن يصل إلى قمة التعليم في تقديسه للسبت والكهنوت والطقوس المحيطة بهما. يعيد الكاتب تأسيس بعض

٩- أندريه ديبون، سومر ومارك فيلوننكو، ص ١٣.

١٠- STROTHOTTE, *Id.*

١١- أندريه ديبون، سومر ومارك فيلوننكو، ص ١٣.

الأعياد، التي ظهرت متأخرة في التاريخ اليهودي، إلى زمن الآباء، وذلك لأن القدم يزيدها قدسية.

يتطرق الكتاب إلى موضوع الاسخاتولوجيا (الأمور الأخيرة)، فيلمح في بعض الآيات إلى إيمان الكاتب بـ «الملك الألفي السعيد»[١٢] في المقطع المعنون «الردة الآخروية» (٢٣: ٢٦-٣٢)، يورد الكاتب كلاما شبيها بالأوصاف المادية للملكوت كما في سفر إشعياء، ف١١. ويتكلم أيضا على اختفاء الشيطان، وهذا يوازي ما جاء في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي (ف ٢٠) عن «الملك الألفي السعيد». لكن الكاتب لا يأتي أبدا على ذكر القيامة قبل «الملك الألفي السعيد» ولا وجود للمسيح في هذا الملكوت، وهذا ما يجعله مختلفا عن ذلك الذي كتب عنه في سفر الرؤيا.

الغرض من الكتاب

كانت الحضارة الهلّينية، وخاصة في عهد أنطيوخوس أبيفانوس (١٧٥-١٦٣ ق.م.)، بمثابة تحد للديانة اليهودية. فالهلّينية انفتاح على الحضارات الأخرى من جهة، واقتحام لهذه الحضارات من جهة ثانية، بينما اليهودية انفراز عن الآخرين وتقوقع على الذات. لكن لا ننسى أن الهلّينية التي قاومتها اليهودية كانت مزيجا من الفلسفة والديانات اليونانية (وثنية وتعدد آلهة)، بينما شددت اليهودية على الوحدوية في «يهوه» أو «إلوهيم» والممارسات الطقسية التوراتية والتلموديّة في عبادته. تجسد هذا الصراع في أحداث الحرب المكابية (١٧٥-١٣٥ق.م.). وفي خضم هذا التحدي الديني، ضعف الالتزام بالممارسات الطقسية اليهودية بدقة وبالمحافظة على الأعياد، وتغلغلت عادات وممارسات غريبة (هيلينية) في المجتمع اليهودي. ويؤكد الكاتب أنه فعلا قد أخذ اليهود بكثير من الممارسات الوثنية (أنظر ٢٣: ٢١ مثلا). «تتيح لنا هذه الملاحظات [الانفلات الديني اليهودي] أن نقول أن اليوبيلات قد ألف في زمن ليس ببعيد عن زمن أنطيوخوس أبيفانيوس واضطهاده للشعب اليهودي. ما زال الكاتب تحت تأثير أحداث مؤلمة يلمح إليها... وجاءت إشارات أخرى فدلت أن الخطر قد أبعد وأن شعب اسرائيل انتصر على أعدائه فلا يمكن أن يكون الكاتب نسب إلى الله هذه المواعيد العظيمة في حقبة من الفناء السياسي»[١٣].

وباختصار، إن الغرض الذي هدف إليه الكاتب من كتابه هو تنبيه الشعب من مخاطر إهمال حفظ الأعياد والممارسات الطقوسية والتنجس بالعادات الوثنية وحثهم على التدقيق في حياتهم الدينية وعلاقتهم مع الله. وهناك غرض آخر، تشجيع الشعب وشحنه بالأمل والرجاء، بعد اضطهاد وألم، فالله بقي أمينا لـ «البيريث» (الميثاق أوالوعد أوالعهد) في كل مراحل تاريخ الشعب الإسرائيلي أواليهودي، وسيبقى أمينا حتى يحقق النصر الأخير ويدخل الشعب في العصر السعيد. إليكم هذا المقطع من الكتاب الذي أتي تحت عنوان الردة الآخروية:

«وإنّما في هذا الوقت سيبدأ أطفال بدراسة الشرائع، وسير وصايا(ها) والعودة إلى الدرب الحق. وتبدأ الأيّام بالتضاعف والازدياد بين البشر، من جيل إلى جيل ومن يوم إلى يوم، حتّى يبلغ عمرهم ألف سنة ويتجاوز (عندها) عدد سنيهم عدد أيّامهم (الآن). ولن يكون هناك لا عجوز ولا إنسان مشبع بالأيّام بل سيكونون جميعهم رضعا وأطفال. سيتمون حياتهم في السلام والفرح. ولن يكون هناك من بعد شيطان ولا أي مهدم خبيث، بل أن جميع أيّامهم ستكون أيّام تبريك وشفاء. وعندها سيشفي الرب خدّامه، فيقومون ويشهدون سلاماً عظيماً ويطردون أعداءهم. الأبرار سيرون (ه) ويحمدون ويغتبطون بفرح خالد. وسيشهدون عند أعدائهم الحساب كلّه واللعنه كلّها التي ستضربهم. عظامهم سترتاح في التراب، لكن أرواحهم ستكون بفرح عظيم، وسيعرفون أنّ الربّ هو الذي أقام الحساب والذي أنعم على المئات والآلاف وعلى جميع الذين يحبّونه. وأنت يا موسى ضع هذه الكلمات كتابة، لأنّه مكتوب. وقد وضعت على الألواح السماويّة كشاهد على الأجيال الخالدة» (٢٣: ٢٦-٣٢).

هذا هو «اليوبيل» الكبير، «قرن الكبش»[١٤] الصادح المعلن انتهاء الزمن الأرضي وابتداء الزمن الإلهي الأبدي.

المراجع

لكلّ باحث مهتمّ بدراسة سفر اليوبيلات بطريقة معمّقة، لا بدّ له من استشارة كتاب الخوري بولس الفغالي المشار إليه في الحواشي الذي يحتوي على ترجمة اللغة العربيّة لكتاب اليوبيلات ودراسة مطوّلة عنه وقائمة بالمراجع.

١٢- هذه نظريّة مرتكزة على قراءة حرفيّة لرؤيا، ف٢٠، ومستقاة من الكتابات التلموديّة وبعض الكتابات المنحولة، أخذ بها بعض آباء الكنيسة قديماً مثل كيريللس الأورشليمي وأحيت بعضها بعض في العصر الحديث الكنائس البروتستانيّة.

١٣- بولس الفغالي، ص ٢٤٦.

١٤- هذا هو المعنى الحرفي لكلمة «يوبيل» العبريّة.